على هامش السياسة الدولية

الأستاذ عمر حليق

وراء التوتر المخيف الذى يسود العلاقات الدولية هذه الأيام بعض العوامل الجوهرية التى قل أن يفطن لها المتتبع للشؤون الدولية عن طريق الصحف السيارة وغيرها من الواصلات الفكرية السريعة

وهذه العوامل لا تقتصر على التنافس الاقتصادى والسياسى بمعناه الشائع ؛ وإنما تشمل أوجهاً أخرى على غاية من الخطورة ، وعلى عوامل بعيدة الأثر راسخة النفوذ فى صميم القومات الخلقية والثقافية والنفسانية لهذه الشعوب التى تنقسم الآن إلى معسكرات متطاحنة ، تهدد الإنسانية بويلات الذرة والهيدروجين وشتى أسلحة الحرب الحديثة الروعة

ولقد ظهرت فى الآونة الأخيرة — فى أمريكا وبريطانيا على وجه الخصوص — دراسات عميقة البحث ، علمية المنهج ، تحاول أن تلقى أضواء على تباين هذه المقومات الخلقية والثقافية والنفسانية فى الشعوب المتخاصمة التى بلغت حدة خصومتها درجة يدركها المتتبع لمجرى الحوادث اليومية فى عالم قلق مرهف الأعصاب

وسيحاول كاتب هذه السطور أن يستعرض فى فصول قصيرة ألواناً من هذه النتائج التى وصلت إليها تلك الدراسات التى توخى الباحثون فيها أهدافاً إيجابية نزيهة — نظراً لما فيها من نفع يستعين به رجل العصر على تفهم الأحداث ومكافحة الإرهاق العصبى الذى تخلقه مشاكل السياسة الدولية

والتعرف على حقائق العلاقات الدولية ضرورة حتمية لأهل الشرق العربى ، وليست ترفاً ثقافياً يمكن الاستغناء عنه

فالمواطن فى مصر أو سوريا أو العراق أو نجد مثلا له مصلحة وصلة مباشرة بالتطورات السريعة المتلاحقة التى توجه العلاقات الدولية هذه الأيام — مصلحة وصلة أكثر وثوقاً من مصلحة المواطن الذى يعيش فى الارجنتين أو الأروغواى أو غيرهما من هذه الدويلات التى تعيش فى أمريكا اللاتينية مثلا — وهى قسم من العالم لا تجاوره ، وتهدده تهديداً مباشراً حدة التوتر الدولى وأخطار الحروب العالمية كما تهدد الشرق الأوسط مثلا

والدراسات التى أشرنا إليها تتوخى التعرف معرفة جوهرية صادقة على حقيقة السلوك الإنسانى لمختلف الشعوب — وعلى الأخص تلك التى فى يدها مقدرات السلم والحرب

ومعادل هذه الدراسات علوم اجتماعية متنوعة — منها علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى ، والأنتروبولوجيا وفلسفة التاريخ والاقتصاد بالإضافة إلى العلوم الاقتصادية والسياسية . فالاقتصاد والفلسفة السياسية والتاريخ لا تكفى للتعرف على أسباب التوتر فى العلاقات الدولية . فالكثرة من المثقفين السياسيين فى الصحف السيارة يقتصرون فى تحليلهم للعلاقات الدولية على مطالعاتهم فى التاريخ والاقتصاد والسياسة المعاصرة . وقل أن تجد من يزود نفسه بالدراسة العلمية العميقة لتلك العوامل النفسانية والاجتماعية المتباينة التى تؤثر فى سلوك الشعوب والجماعات القومية إزاء المشاكل السياسية والعسكرية والاقتصادية التى يواجهها العالم المعاصر

وقد فطنت لهذه الحقيقة مؤسسة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم فكلفت جماعة من أهل الاختصاص بالتعرف على دراسة العوامل الخفية الآنفة الذكر وتعميمها بين المثقفين من صناع السياسة وأولئك الذين يوجهون الرأى العام فى مختلف الدول والأمصار — من صحفيين وكتاب

وقد صنفت اليونسكو دراساتها فى أربعة أبواب : —

الأول : — يبحث فى نفسية المواطن فى بلد ما وعلاقته بالخلق القومى العام لذلك البلد

وتحت هذا الباب يلمس الباحث ألوانا من الحقائق الجوهرية الخطيرة التى تسير الاتجاهات العاطفية لذلك الشعب فى صلاته مع العالم الخارجى ، ومبلغ التوتر أو السعاء الذى ينتج عن سير تلك الاتجاهات العاطفية وما تخلق فى المراحل النهائية من عنف أو مسالمة إذا ما اصطدمت بالاتجاهات العاطفية والقومات النفسانية للشعوب الأخرى

بمعنى آخر — فإن التعرف على المقومات الخلقية لشعب ما والتي يتميز بها عن غيره من الشعوب — التعرف على هذا الاختلاف يساعد كثيرا على تفهم أسس التنافس السياسي الدولي الشديد الذي نقرأ عنه في الصحف السيارة ونتساءل عما إذا كان من الممكن التغلب عليه وإحلال الصفاء والانسجام مكان الخصومة والتحدي

والثاني : — يسعى لفهم الصورة التي يحملها شعب ما عن الشعوب الأخرى ، وهل هذه الصورة صادقة — بمعنى أنها منطبقة على الصورة الحقيقية لتلك الشعوب — أم أنها وليدة الاستنتاج الخاطئ الناتج عن سوء الاجتهاد والانفعال النفساني العليل ، والمعرفة المشوهة التي يحملها ذلك الشعب عن الحقائق التاريخية والاقتصادية والسياسية للشعوب الأخرى ؟

وهذا بمعنى آخر — محاولة للتعرف مثلا على مبلغ الصدق فيما تدعيه دولة أو شعب ما بأن خصمه مجبول على العنف والفطرسة ، وأن الحقد والدسيسة من خصائصه الخلقية الأصيلة ، وأن ذلك الخصم مهما صادقته وحاولت توثيق العلاقات الودية معه فإن أهله مفطورون على التحدي والخسة والغدر . فكثير من الناس مثلا يعتقدون بأن الشعب الألماني « شعب حربي » لا يلتزم السلم ولا يشارك في حفظه حتى لو توفرت له أسباب الطمأنينة السياسية والعسكرية والاقتصادية . فمثل هذا الاعتقاد ظاهرة خطيرة لما أثرها البعيد في سلوك الشعوب تجاه الشعب الألماني من جهة ؛ وفي سلوك الشعب الألماني تجاه الشعوب الأخرى من جهة أخرى . فأنت إذا اقتنعت بأن الناس لا تؤمن بأنك حريص على الوداد والصداقة فإنك ستسلك في المراحل النهائية — سلوك تحد مبعثه يأسك من إزالة هذه الصورة الخاطئة التي يحملها الناس عنك . وللصبر حدوده

والثالث : — يحاول أن يتعرف الأسباب التي دفعت شعبا من الشعوب لأن يحمل صورة خاطئة عن شعوب العالم الذين يعيش فيه . ويحاول كذلك أن يحصر تلك الأسباب في إطار علم النفس الاجتماعي مستندا إلى الحقائق الاقتصادية والعوامل التاريخية والسياسية التي تعيش في الحياة القومية لذلك الشعب

وفي علم النفس الاجتماعي أسلحة يعتقد العارفون بها إزالة أسباب الفطيمة وسوء السلوك والعقد النفسانية التي هي ليست وليدة التنافس الاقتصادي والقلق السياسي فحسب ، بل هي كذلك ناتجة عن الجهل بالمقومات الخلقية والثقافية للمائلة الإنسانية على نحو ما أشرنا إليه . وفي استطاعة أولي الدراية كذلك أن يلجأوا لتلك الأسلحة لتحقيق السيطرة والتفوق السياسي والعسكري والاقتصادي على الشعوب الأخرى

والرابع : الوصول من هذا التبويب والدراسة السابقة إلى حصر الأسباب التي تدفع الشعوب إلى الشقاق والعنف وإلى الحرب والقتال

وهذا الحصر لا يكون بدراسة التنافس الاقتصادي وحدة الجدل السياسي — كما أشرنا سابقا — وإنما يكون بتمحيص المؤثرات الثقافية والاجتماعية للشعوب المتخاصمة ، ومن أمثلة هذا التمحيص معرفة الطريقة التي يربي بها ذلك الشعب أطفاله في سن الحداثة

فقد حلل مثلا أحد العلماء في الأنثروبولوجيا البريطانيين من الذين قاموا بدراسة التوتر الدولي على ضوء ذلك العلم — المقدمات الخلقية للشعب العربي ، فوجد العرب — والشعوب الشرقية إجمالا — تزم أطفالها في سن الحداثة زما يقيد اليدين والرجلين تقييدا كليا ، ويمنع الطفل من الحركة ولا يترك له من أعضاء الجسد ما يوفر له الاتصال بالعالم الذي يحيط به سوى فمه وعينه . واستنتج العالم من ذلك أن الشعب العربي تبهره مظاهر العظمة والقوة المحسوسة (بواسطة العينين) ، وتؤثر فيه البلاغة (بواسطة الفم) . ولذلك فقد أشار على الدول والشعوب التي تتصل بالعرب بأن تبهرهم بألوان العظمة واليأس المجسم (من طائرات وأساطيل وقوات عسكرية يراها بعينه) وأن يخاطبهم — أي العرب — بالمنطق المعسول والكلمات المنتقاة

هذا مثل واحد من أمثلة عديدة على هذا اللون من الدراسات التي يطمح كاتب هذه السطور أن يلفت إليها النظر في استعراضه لبعض المؤثرات الجوهرية التي لا يفطن إليها كثير من الناس في معرض تفكيرهم وتأثرهم بمجرى العلاقات الدولية

نيويورك — سلام صلة — عمر حليي